

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح رياض الصالحين

شرح مقدمة الباب ٢ وحديث أنسٍ -رضي الله عنه- "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا"

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب "حسن الخلق" أورد المصنف -رحمه الله- آيتين في صدر هذا الباب: الأولى: وهي قوله -تبارك وتعالى في صفة نبيه -صلى الله عليه وسلم-: **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}** [القلم:٤].

فوصف نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأثنى عليه بهذه الصفة، وذلك لما للأخلاق من منزلة عند الله -تبارك وتعالى- ترتفع بها مرتبة العبد في سلم العبودية، فأثنى عليه بالأخلاق، ما أثنى عليه بأنه يملك ما لا كثيراً، أو أنه يحمل صورة معينة، أو أنه ينتسب إلى كذا أو نحو ذلك، مع أن نسبه -صلى الله عليه وسلم- هو أشرف وأكمل نسب، فأثنى عليه هنا بالخلق **{وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**، ووصفه بالعظم؛ لأن الكمالات تتفاوت، فالناس من ذوي الأخلاق يتفاوتون في أخلاقهم، فمنهم مقل ومنهم مكثر.

وقال تعالى: **{وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** [آل عمران:١٣٤]، الكاظم الغيظ هو الذي لا يُنفذ غيظه وهو قادر على إنفاذه، بمعنى أنه إذا غضب فإنه يكظم غيظه وحنقه فلا يصدر منه قول ولا فعل من جراء هذا الحنق والغيظ، وكثير من الناس تنفرط أسنتهم، ولربما لم يستطع السيطرة على جوارحه في حال الغضب، ولهذا أرشد النبي -صلى الله عليه وسلم- من وقع له شيء من ذلك -أعني الغضب- إلى أنه إن كان قائماً فإنه يجلس، وإن كان جالساً أن يضطجع، وقد ذكر بعض أهل العلم في الحكمة في هذا هو أن ذلك أدعى إلى السيطرة على الجوارح، فإذا كان قائماً فلربما يتعدى على من أعاظه وأغضبه، وإذا كان جالساً فكذلك، فإنه بحاجة إلى أن يضطجع، فهذا أسلم وأضبط بحيث لا يصدر منه شيء مشين؛ ولهذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: **{(إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)}**^(١)؛ لأن الكثيرين يضعفون، وكثير من الناس يقول: أنا إذا غضبت لا أرى، لا أبصر، ولا أسمع، بل يصل إلى حد الإغلاق بمعنى أن عقله -نسأل الله العافية- كأنه قد صودر، يصير مثل المجنون، فيتصرف بتصرفات لربما يندم عليها بعد ذلك، وانظروا إلى من يُبتلى من الناس بالسجون ممن ابتلوا بالقتل فما دونه، ثم بعد ذلك يفيق ويندم، وكانت لحظة غضب، وأيضاً أولئك الذين يطلقون العبارات من الطلاق وما شابه ذلك من ظهار أو تحريم أو نحو هذا، كل هذا في لحظات الغضب، ثم بعد ذلك يندم ويبحث عن يفتي، وكيف يخرج من هذا الإشكال، وقد ذكر الحافظ ابن القيم -رحمه الله- أن الإنسان حينما يكون في شدة الغضب أو في شدة الفرح فمعنى ذلك أنه في حال غير سوية، ولهذا ينبغي أن

١ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، برقم (٦١١٤)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب، برقم (٢٦٠٩).

يُتَوَرَّعُ مِنْ عَطَايَاهُ وَمَوَاهِبِهِ حَالِ فَرَحٍ شَدِيدَةٍ، فَقَدْ يُعْطِي وَيُهَبِّبُ هَدِيَّةً وَيَقُولُ: خَذْ سَيَّارَتِي، وَخُذْ كُلَّ مَا عِنْدِي، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا بَدَأَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ صَوَابَهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ يَنْدِمُ عَلَى هَذَا التَّصَرُّفِ، فَكَانَ ابْنُ الْقَيْمِ -رَحِمَهُ اللهُ- يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْحَالَاتُ يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِيهَا عَلَى غَيْرِ اسْتِوَاءٍ فِي التَّفَكِيرِ، فَيُتَوَرَّعُ مِنَ الْأَخْذِ مِنْهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانٌ))^(٣).

قال: **{وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}** فهذه مرتبة أعلى من مجرد كظم الغيظ، قد يكظم الإنسان غيظه ولكنه يريد أن ينتقم في الوقت المناسب، أو يريد على الأقل أن يستخرج حقه وأن يطالب به، أو أن يشتكي على هذا الإنسان ونحو ذلك، لكنه كظم غيظه لم يصدر منه شيء، فالعفو أعلى درجة من مجرد كظم الغيظ، يكظم الغيظ فإذا ارتقى يعفو بمعنى يتجاوز عن إساءة هذا الإنسان، وكأنه لم يصدر منه شيء.

وقال: **{وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}** هذه في الدرجة العالية، هذه في المرتبة العليا من مراتب الأخلاق، أنه لا يكفي بكظم الغيظ، ولا بالعفو عن هذا الإنسان الذي أساء، وإنما يحسن أيضاً إليه كما كان هدي النبي -صلى الله عليه وسلم-، الرجل الذي جاء يطالبه بالدين، وأخبار النبي -صلى الله عليه وسلم- في هذا معروفة، الأعرابي الذي قال: أعطني فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك^(٣)، فكان هديه -صلى الله عليه وسلم- الإحسان. والله -تبارك وتعالى- قال في حق أبي بكر لما غضب على مسطح وتكلم في عرضه قال الله -تبارك وتعالى-:

{وَلَا يَأْتَلِ} [النور: ٢٢] لا يحلف **{أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ} [النور: ٢٢]**، فأعاد إليه أبو بكر -رضي الله تعالى عنه- النفقة التي كان ينفقها عليه -التي كان يعطيها إياها-؛ لأنه كان فقيراً.

وذكر حديث أنس -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خلقاً"^(٤)، متفق عليه.

هذه الكلمة لم تصدر من قول عابر رآه مرة أو لحظة فأعجب، وإنما قالها من عايشه -صلى الله عليه وسلم- وخدمه، والعادة أن الخادم ومن يحتق بالإنسان ممن لا شأن له أنه يرى أخلاقه على الحقيقة، الناس البعداء قد يرونه يوماً في لحظة غضب فيحكمون عليه بذلك دائماً، أو يرونه في لحظة انبساط أو مجاملة أو نحو ذلك ويحكمون عليه بهذا دائماً، ولكن الذي يعرفه هم أولئك الذين يحتفون به في أحواله كلها، كالخادم والزوجة ونحو هذا، والخادم أعظم؛ لأن الخادم بالعادة لا يؤبه به، وليس كالزوجة، الزوجة قد يقدرها، قد يحبها، قد يكون لها نوع سيطرة على هذا الإنسان، أو يحسب لها حساباً، أو لأهلها أو نحو ذلك، ولكن الخادم لا يعباً به، كيف إذا

٢ - أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب هل يقضي القاضي أو يفتي وهو غضبان، برقم (٧١٥٨)، ومسلم، كتاب الأفضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، برقم (١٧١٧).

٣ - أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الحلم وأخلاق النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٧٧٥)، والنسائي، كتاب القسامة، باب القود من الجبذة، برقم (٤٧٧٦).

٤ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، برقم (٦٢٠٣)، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة، والصلاة على حصير وثمره وثوب، وغيرها من الطاهرات، برقم (٦٥٩).

كان صغيراً، أنس -رضي الله تعالى عنه- خدم النبي -صلى الله عليه وسلم- وله عشر سنين^(٥).
فيقول: "كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أحسن الناس خلقاً".

فهذه هي الأخلاق الكاملة لا الأخلاق المصطنعة، الإنسان قد يكون مع زملائه في العمل، قد يكون مع المراجعين، قد يكون مع الذين يشتررون منه إن كان يبيع سلعة أو نحو ذلك يتعامل بأخلاق لربما ليست حقيقية، لكن الأخلاق الحقيقية يحبسها حتى يرجع إلى بيته، وكم تسمع من أناس يشكون شكوى مرة من أولئك الذين يدخلون بيوتهم ثم بعد ذلك يفرغ الواحد منهم غضبه على زوجته وعلى أطفاله المساكين من غير جناية ومن غير موجب، ولكنها أخلاق سيئة احتبست فلم تظهر للناس، ثم بعد ذلك ظهرت على هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يدفعوا سطوته ويدفعوا ظلمه عنهم، وهذا أسوأ ما يكون أن يظلم الإنسان ويستطيل على من لا يستطيع دفع مظلته.

وأسأل الله -عز وجل- أن يصلح قلوبنا وأعمالنا وأحوالنا.

وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه.